غدعون ليفي (*)

أين كان اليسار الإسرائيلي وأين هو الآن؟

في ٢٢ أيلول ١٩٦٧، نُشر الإعلان التالي في صحيفة «هآرتس»: «إن حقنا في حماية أنفسنا من الإبادة لا يمنحنا الحق في اضطهاد الآخرين. الاحتلال يُنشئ سلطة أجنبية. السلطة الأجنبية تستدعي المقاومة. المقاومة تجرّ القمع. القمع يجرّ الإرهاب والإرهاب المضاد. ضحايا الإرهاب، عادة، هم من الناس الأبرياء. السيطرة على المناطق المحتلة ستجعلنا شعبا من القتلة والقتلى. فلنخرج من المناطق المحتلة، فورا».

وقد وقع على هذا البيان، الذي شكل حجر زاوية في تاريخ اليسار الإسرائيلي، اثنا عشر شخصا من اليسار، أحد عشر يهوديا، وعربي - إسرائيلي واحد. كانوا، ولا يزالون، في الهامش. أسماؤهم لا تزين ساحات أو شوارع، قلائل هم الذين تعرّفوا عليهم آنذاك والذين يعرفونهم اليوم. بعضهم قد رحل عن هذه الدنيا. كانت تلك أيام العربدة القوموية – الدينية الأكبر في تاريخ إسرائيل، أيام الثمالة في أعقاب حرب الأيام الستة، فاجتذب البيان انتباها ضئيلا جدا. وقد استخدم تعابير غريبة كليا عن اللغة الإسرائيلية السائدة آنذاك، وهي تعابير شكلت في نظر الغالبية الساحقة خيانة وزندقة، بصورة أساسية. في الوقت الذي كانت تتحدث فيه إسرائيل عن «المناطق المحررة»، كانت كلمة احتلال كلمة نابية. ومثلها، كذلك، كلمات الحكم الأجنبي، الاضطهاد، القمع والمقاومة. وأنا أيضا، شابا آنذاك، سافرت برفقة والديّ إلى بيت لحم، الخليل، القدس القديمة وإلى نابلس – المدن المحررة، شاهدت بتأثر بالغ قبر راحيل، مغارة المكفيلا (الحرم الإبراهيمي - المترجم) وحائط المبكى (حائط البراق - المترجم)، رأيت بعينين فخورتين قطع القماش البيضاء التي رُفعت وعُلّقت

(*) صحافي إسرائيلي من أسرة تحرير «هآرتس».

من السائد الاعتقاد بأن اليسار الإسرائيلي قد مات خلال الانتفاضة الثانية، مع بدء ظاهرة الحافلات المتفجرة والانتحاريين. ومن السائد الاعتقاد، أيضا، بأن إيهود باراك قد أسهم، بغير قليل، في موت اليسار: حينما عاد من مؤتمر كامب ديفيد، في مطلع الألفية الحالية، روى للإسرائيليين أنه قلّب جميع الأحجار في طريقه نحو السلام، أنه عرض على ياسر عرفات السماء لكن عرفات رفض قبولها. وقد تلقف الإسرائيليون هذه الكذبة، كما تلقفها اليسار الصهيوني أيضا.

على البيوت إعلانا للخضوع وتعبيرا عن الاستسلام، كما رأيت بعينين مغمضتين مئات آلاف الفلسطينيين الذين اختبأوا داخل تلك البيوت، ليصبح بعضهم لاجئين للمرة الثانية. وأذكر أنني لم ألاحظهم آنذاك، لم أنتبه إلى وجودهم. فقد كنت شابا مغسول الدماغ مُعمى البصيرة.

كان الموقعون على البيان أعضاء في تنظيم «ماتسبين» («بوصلة»)، اليساري الراديكالي. كانوا قلة منبوذة في المجتمع الإسرائيلي. كان جهاز الاستخبارات يتعقبهم ويراقبهم، وكانت الشرطة تعتقلهم وكان الإسرائيليون يدينونهم ويندِّدون بهم باعتبارهم خونة. وسوية مع اثنين أو ثلاثة آخرين، ليس أكثر – البروفسور يشعياهو ليبوفيتش، إسحق بن أهارون وحفنة قليلة– كانوا أنبياء الغضب الذين سبقوا الجموع، الأوائل الذين نظروا بأعين مفتوحة وواعية فرأوا المصيبة الكبيرة التي أوقعتها حرب الأيام الستة، التي اعتبرت آنذاك مفخرة حروب إسرائيل وأروعها. المصيبة الكبيرة التي من شأنها أن تصمم دولة إسرائيل وتشكّلها لأجيال عديدة قادمة، بل أن تصمم وترسم، بدرجة أكبر، مصير ملايين الفلسطينيين لأجيال قادمة من حياة الاضطهاد، القمع والاحتلال الوحشي.

منذ ذلك الحين، لم تجر مياه كثيرة في نهر الأردن، الذي هو في الواقع ليس سوى جدول متواضع. صحيح أن إسرائيل أصبحت تتبنى، بصورة رسمية تقريبا، اللغة الاصطلاحية الخاصة بحركة «ماتسبين» وبيانها النبوئي، إذ أصبح الجميع يتحدث عن حل الدولتين، يتحدثون ويفعلون كل ما في وسعهم لإجهاضه، لكن الاحتلال قد ترسخ وتعزز، مثلما تعزز أيضا مشروع الاستيطان، فيما تقهقر اليسار الإسرائيلي وتراجع، ليس بأقل من ذلك. ٤٦ سنة مضت ولا يزال غير موجود في كنيست إسرائيل ولو حتى درزينة من الأعضاء، من غير اليهود بالطبع، التي يشكل النضال ضد الاحتلال رايتهم المركزية. ٤٦ سنة مضت وفي معركة الانتخابات للكنيست الـ ١٩، التي جرت مؤخرا، أصبحت كلمة يسار كلمة نابية يهرب الجميع منها، كما من النار. لقد غاب النضال ضد الاحتلال واختفى، ومعه اليسار الإسرائيلي أيضا. لم يعد كلاهما حاضرا في الجدل الإسرائيلي العام.

من السائد الاعتقاد بأن اليسار الإسرائيلي قد مات خلال الانتفاضة الثانية، مع بدء ظاهرة الحافلات المتفجرة والانتحاريين. ومن السائد الاعتقاد، أيضا، بأن إيهود باراك قد أسهم، بغير قليل، في موت اليسار: حينما عاد من مؤتمر كامب ديفيد، في مطلع الألفية الحالية، روى للإسرائيليين أنه قلّب جميع الأحجار في طريقه نحو السلام، أنه عرض على ياسر عرفات السماء لكن عرفات رفض قبولها. وقد تلقف الإسرائيليون هذه الكذبة، كما تلقفها اليسار الصهيوني أيضا. وكان من شأن المزاوجة بين الرعب في شوارع المدن الإسرائيلية وبين الدعاية القائلة بأن «لا شريك» (للسلام) أن نجحت في تحقيق غايتها فتوجه الإسرائيليون، واليسار بضمنهم، إلى الاستجمام على شاطئ البحر، كما وصف أحدهم الوضع آنذاك.

إنه ادعاء شائع، من الصعب القبول به كاملا، نصا وروحا. ولو كان هنا ثمة يسار حقيقي، معسكر سلام شجاع وحازم، لما كان بمقدور هذين الحدثين المؤسسين تحطيمه. فلو كان ثمة يسار هنا لقاومهما، بالذات. وحقيقة أنه تحطم بمثل هذه السرعة وبهذه السهولة غير المحتملة تثير الشبهات بأنه كان متخاذلا وضعيفا منذ البداية. هذا اليسار، الذي احتفل باتفاقيات أوسلو في مهرجانات جماهيرية، في الوقت الذي كان فيه «السلام الآن» اسما لحركة جماهيرية وأمنيةً جماهيرية عامة، على حد سواء، والذي خرج أيضا بجماهيره الواسعة إلى الشوارع في العام ١٩٨٢ ضمن حركة احتجاجية كبيرة في أعقاب المجزرة الفظيعة في مخيمي صبرا وشاتيلا، التي لم يكن الإسرائيليون هم الذين نفـّذوها مباشرة – هذا اليسار انخرَس واختفى. وما من شيء يمكنه تفسير هذا، ما من شيء يمكنه تبرير ذلك، سوى ضعفه المتأصل وعجزه عن الظهور في الأيام العصيبة، حصرا وتحديدا.

اليمين الإسرائيلي: سطوة على الأرض.. وفي الخطاب.

ذلك أن هذا هو اختباره الحقيقي: الظهور الساطع بالذات في الأيام العصيبة التي يسيطر عليها الإرهاب الوحشي والقيادة المضلّلة الخادعة. في هذا الامتحان فشل، فشلا مطبقا. واليأس الذي استحكم به هو يأس الضعفاء أصلا.

ما الذي تبقى؟ قليل جدًا.

لا تزال في إسرائيل ٢٠١٣، بضع مجموعات حازمة وشجاعة تناضل ضد الاحتلال ومن أجل تسوية سلمية. إنها جماعات صغيرة وهامشية، وثمة من يشن ضدها حملات منهجية لنزع شرعيتها، حتى أن صوتها يكاد لا يُسمع. ومن المشكوك فيه ما إذا كان قد بقي ٤٠٠٠ من الـ ٤٠٠,٠٠٠ الذين شاركوا في مظاهرة صبرا وشاتيلا. منذ تلك المظاهرة الاحتجاجية، بقي «ميدان رابين» (الميدان المركزي في مدينة تل أبيب، وكان يطلق عليه آنذاك اسم «ساحة ملوك إسرائيل» ـ المترجم) مهجورا على الدوام، تقريبا، في «الرصاص المصبوب» وفي حرب لبنان الثانية، في «السور الواقي» وفي «عامود السحاب»، في «غيوم المطر» وفي «عناقيد الغضب» وفي جميع الحملات والهجمات التي لم يُطلق عليها حاسوب الجيش الإسرائيلي أية أسماء. لم يمتلئ الميدان مرة أخرى سوى خلال حملة الاحتجاج الاجتماعية في صيف ٢٠١١، والتي حرصت، تماما، على عدم الحديث عن الاحتلال، فتلاشت واختفت كأنها لم تكن، كما امتلأ أيضا في أيام إحياء ذكرى اغتيال رئيس الحكومة، إسحق رابين، بمهرجانات يقيمها اليسار، المزعوم، وسط أحوال جوية صافية، دائما، بمشاركة المغنين الأكثر شعبية، في لقاء اجتماعي نوسطالجي لذكرى الأيام الخوالي التي لن تعود ثانية.

ماذا تبقى؟ الـ «فوضويون ضد الجدار»، مجموعة من الشبان تنشط بلا هوادة أو ملل. الاحتجاج في الشيخ جراح. نساء من أجل حقوق الإنسان («محسوم ووتش»). «يش دين» (منظمة متطوعين لحقوق الإنسان). بتسيلم. حراس القانون – حاخامون من أجل حقوق الإنسان. «أكتيف ستيلز» (ActiveStills – مجموعة من المصورين الذين يلتقطون الصور في المظاهرات والأعمال الاحتجاجية ضد الاضطهاد والقمع، العنصرية، العولمة وخرق حقوق الإنسان). يوجد حد (يش غفول). هموكيد – مركز الدفاع عن الفرد. اللجنة الشعبية لمناهضة التعذيب في إسرائيل. أطباء من أجل حقوق الإنسان. تعايُش. جمعية لنكسر الصمت وبعض المنظمات والمجموعات الأخرى التي لا أذكرها الآن، وأستميحها عذرا. هؤلاء أشخاص مثابرون وشجعان، مخلصون وراديكاليون، يحتجّون أسبوعيا، يستنشقون الغاز ويتعرضون للإهانات، للرصاصات المطاطية، بل والحيّة أحيانا، غير أن لنشاطهم قيمة محدودة جدا: ثمة من يحرص على إسكاتهم.

تستحق جمعية «لنكسر الصمت» بحثا منفردا: فقد كانت

عرضت «لنكسر الصمت»، في الغالب، شهادات كان بعضها فظيعا ومروّعا جدا، لكن أحدا لم يُصغِ، تقريبا. فقد تكاتف الجيش الإسرائيلي ووسائل الإعلام الإسرائيلية، معا، لتقويض هذه الشهادات، على الرغم من أنها سُجّلت بصيغة المتكلم، المفرد والجمع. التحالف الأوسع في المجتمع الإسرائيلي، كإجماع تام تقريبا، هو بين الحكومة والأجهزة الأمنية التي لا تريد للجمهور أن يعرف، والناشرين، المحررين والمراسلين الذين لا يريدون إقلاق راحة قرائهم والقراء الذين لا يريدون أن يعرفوا - اتحدوا معا جميعا في تظاهرة «لا نعرف، لا نريد أن نعرف، لا نسمع، لا نرى».

الفكرة أن تكون نقطة التحول في المكان الذي يفكّ فيه الجنود والضباط أنفسهم قيود قلوبهم وأفواههم ويشرعون في سرد مكنوناتهم، أن يكسروا صمتهم وأن يرفضوا، ربما، تأدية الخدمة العسكرية أيضا. وكانت الفكرة الساذجة أن بضع مئات من رافضي التجند للخدمة العسكرية، أو بضع مئات من كاسري الصمت على الأقل، ستكون كافية لتهديم منظومة الإسكات، الدعاية، الكذب والخداع التي يمارسها أرباب الاحتلال في الوعي الإسرائيلي. كان الأمل أنه إذا ما تحدث الجنود والضباط الذين كانوا هناك، فسيصغي المجتمع الإسرائيلي إليهم. كان الأمل أنه إذا ما علم الإسرائيليون بما يُقتَرَف باسمهم هناك، على بُعد بضع عشرات الكيلومترات من منازلهم، فسيصابون بصدمة الوعي. لكن هذا لم يحدث. حقا لم يحدث.

عرضت «لنكسر الصمت»، في الغالب، شهادات كان بعضها فظيعا ومروّعا جدا، لكن أحدا لم يُصغِ، تقريبا. فقد تكاتف الجيش الإسرائيلي ووسائل الإعلام الإسرائيلية، معا، لتقويض هذه الشهادات، على الرغم من أنها سُجّلت بصيغة المتكلم، المفرد والجمع. التحالف الأوسع في المجتمع الإسرائيلي، كإجماع تام تقريبا، هو بين الحكومة والأجهزة الأمنية التي لا تريد للجمهور أن يعرف، والناشرين، المحررين والمراسلين الذين لا يريدون إقلاق راحة قرائهم والقراء الذين لا يريدون أن يعرفوا – اتحدوا معا جميعا في تظاهرة «لا نعرف، لا نريد أن نعرف، لا نسمع، لا نرى». منظمة «لنكسر الصمت»، التي جمعت شهادات موثوقة من مصدرها الأول، ونظمت جولات موجَّهة إلى مناطق الاحتلال، أصبحت غير ذات صلة وجدوى تقريبا، مثلها مثل المنظمات الأخرى. وقد أسدى هذا خدمة للجميع. فقد أثبت، ليس للمرة الأولى، أن المتعاونة الأكبر مع الاحتلال هي وسائل الإعلام الإسرائيلية وهي لا تقوم بذلك بسبب رقابة فوقية، خارجية، ولا لأسباب أيديولوجية، وإنما بسبب الرقابة الذاتية بدوافع تجارية خالصة.

«الريتينج» (نسبة المشاهدة) هو اسم اللعبة الحقيقية، والأساس ـ عدم الاستفزاز و/ أو إثارة الغضب إلى حد كبير. باستثناء صحيفتي، «هآرتس»، ليست هناك وسيلة إعلام أخرى في إسرائيل تنشر باستقامة ومهنية عما يحصل في الفناء الخلفي لدولة إسرائيل، مما يبقيه ملفوفا بالعتمة. ومن الصعب، بل من المستحيل تقريبا، تأسيس معسكر يسار، حقوق إنسان وسلام، في مثل هذا الوضع.

إلى هذا كله، ينبغي أن نضيف، أيضا، ظاهرة حديثة نسبيا: الشعبان، الإسرائيلي والفلسطيني، لا يلتقيان أكثر، على الإطلاق. فإذا كان مئات آلاف الفلسطينيين قد ظلوا، حتى اندلاع الانتفاضة الثانية وإقامة الجدار العازل في أعقابها، يتوافدون من الضفة الغربية وقطاع غزة إلى العمل في إسرائيل، في تنظيف شوارعها، جلي أواني مطابخها، بناء بيوتها، فلاحة حقولها والعمل في مصانعها، فإن هذه الظاهرة قد توقفت واختفت نهائيا منذ أكثر من عقد من الزمن. وكذلك الإسرائيليون، الذين كانوا يسافرون بأعدادهم الغفيرة إلى مدن الضفة الغربية وقطاع غزة وقراهما، لشراء الحديد، لتصليح السيارات والأسنان، لتأثيث البيوت والحدائق، توقفوا هم أيضا عن التوجه إلى هناك. هذا اللقاء لم يكن لقاء متساويا وعادلا في أي يوم من الأيام. لكنه كان لقاء، على الرغم من ذلك. شيء ما كان يحصل بين أبناء الشعبين، بل وكانت تنشأ بعض الصداقات الحقيقية بين عائلات من الجانبين في بعض الأحيان. هذا كله توقف، تلاشى واختفى كأنه لم يكن. الشاب الإسرائيلي المتوسط لم يلتق فلسطينيا في حياته، قط، سوى من خلال خدمته العسكرية، حيث يُنظَر إلى أي فلسطيني هناك بوصفه «جسما مشبوها»، على الرغم من أنه يسكن على بُعد دقائق معدودات من بيته. أما الفلسطيني المتوسط فلم يلتق، قط، إسرائيليا غير مسلح، يتحدث إليه بلغة بني البشر ويتعامل معه بحدّ أدنى من الاحترام. هذا كله اختفى. وحيث لا يلتقي

أبناء الشعبين بعضهم بعضا، على الإطلاق، تتنامى وتتسع، أكثر فأكثر، نزعات التجريد من الإنسانية، الشيطنة، الخوف والكراهية. وعندئذ، لا يعود أي يسار قادرا على التجسير على هذا الوضع. إن الصورة الوحيدة عن الفلسطيني اليوم في عيني الإسرائيلي هي صورة المخرّب الانتحاري، الإرهابي المَقود إلى الاعتقال، حامل السكين أو مُخبّئ العبوة الناسفة. والصورة الوحيدة عن الإسرائيلي في عيني الفلسطيني هي صورة الجندي الذي ينبح عليه أوامر غير إنسانية، المحقق الذي يعذّبه خلال التحقيق، أو المستوطن الذي يحرق حقوله، يصادر قطعان المواشي التابعة له أو يقتلع أشجار الزيتون التي يمتلكها. إنها أرضية سيئة جدا لإعادة بناء معسكر سلام جديد.

زد على ذلك، أن كون مستوى المعيشة في إسرائيل أفضل، نسبيا، عدم وقوع أية عمليات تفجيرية، استقرار الوضع الاقتصادي على حال معقولة، وفوق هذا كله، كون الاحتلال – في نظر الإسرائيلي المتوسط ـ لا يكلف الإسرائيليين أي ثمن، تجعل من الصعب جدا بلورة وتشكيل احتجاج يساريّ. فما دام الإسرائيليون لا يدفعون ثمن الاحتلال، لن يحتجوا عليه ولن يناضلوا ضده. وحتى إن دفعوا، كما حصل خلال الانتفاضة الثانية، فسيكون هناك من يحرص على عدم عقد الصلة المباشرة بين الثمن وبين الاحتلال، بين المقاومة وبين الاحتلال، بين الإرهاب وبين الاحتلال – ولذا، فهذه كلها لن تُحدث أي تغيير في داخل المجتمع الإسرائيلي. نعم، ليس ثمة تغيير يمكن اليوم توقع حصوله في داخل المجتمع الإسرائيلي، طالما هو لا يدفع، في نظر نفسه، أي ثمن لقاء الاحتلال. وكذلك الحال فيما يتصل بوضع إسرائيل المهزوز في العالم اليوم، إذ لا يُنظر إليه هنا بوصفه من نتائج الاحتلال ومتأتيا عنه: فالعالم كله ضدنا، أصلا، عالم لا سامي وكاره لإسرائيل، معاد لها. فما علاقة هذا، أصلا، بالاحتلال. هذه هي قناعة غالبية الإسرائيليين.

الفترة الحالية عصيبة على معسكر السلام واليسار الإسرائيلي. لا تمثيل له في الكنيست ولا في الشارع، لا في وسائل الإعلام ولا في الوعي العام. إنها أيام الأفراد القلائل الذين لا يتنازلون ولا يستسلمون، انفصاليو إسرائيل الذين لا يرفعون أيديهم يأسا وفي مقابلهم معسكر كبير وعديد، معسكر التيار المركزي في المجتمع، الأغلبية الصامتة، المجتمع الإسرائيلي بأكمله تقريبا، المنشغل بالرحلة الاستجمامية القادمة وبسيارة الجيب المقبلة، الغارق في ظلمة أخلاقية مطبقة، في عمى قيميّ وبلادة، لا يريد أن يسمع، لا يريد أن يعرف، ولا يريد أن يحتجّ بالطبع. إنها أيام العتمة الإسرائيلية، ولا ضوء يلوح في الأفق.

مترجم عن العبرية

ترجمة: سليم سلامة